مركز البيدر للدراسات والتخطيط
Al-Baidar Center For Studies And Planning

قراءة في كتاب

من الذي دفع للزمار- الحرب الباردة الثَّقافية

لمؤلفه فرانسيس ستونر سوندرز

د. عبد الخالق كاظم إبراهيم

إصدارات مركز البيدر للدراسات والتخطيط

نبذة عامة عن الكتاب:

تتجلى أهمية كتاب: «من الذي دفع للزمَّار- الحرب الباردة الثَّقافية» لمؤلفته: فرانسيس ستونر سوندرز من جانبين مترابطين: يتمثل الأول بالجانب التوثيقي والسردي للوقائع والأحداث، وساعدها في ذلك خبرتها في عالم التوثيق، إذ اعتمدت مؤلفته على أسرار مهمة ووثائق شديدة الخطورة لم تكشف من قبل، تتعلق بعمل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وكذلك اعتمادها على حوارات شخصية وقائمة كبيرة من المراجع والمقابلات التي أجرتها مع أفراد متورطة أو على علاقة بمرحلة الحرب الباردة والتي كانت بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي (1945 – 1992م). أما الجانب الثاني فهو الجانب التحليلي والنقدي، وقيامها بالتحليل العميق للحركة الثَّقافية والفنية لتوظيف الـ «C.I.A» لعملائها في هذه التحركات والتجمعات، والكشف عن اختراقها لعدد كبير من الكتّاب والمفكرين في أوروبا وأنحاء أخرى من العالم، وتلاعبها بمقومات الحياة الثَّقافية والفنية العالمية. وتحاول تعرية وفضح الدور الخطير الذي لعبته تلك الوكالة أثناء الحرب الباردة لمواجهة الشيوعية في عالم الفنون والآداب وشتى أنواع الثَّقافة؛ في محاولة منها لإماطة اللثام عن الأسرار التي تقف خلف المواقف والتحولات في مسارات عالم الثَّقافة التي لا يعرف أسبابها الكثير من المثقفين؛ كونها تم صياغتها بدقة متناهية في محاولة لتمريرها وقبولها دون اعتراض من الآخرين. وهو من الكتب الشاهدة على العصر، ومن أشمل الكتب التي تكشف العالم الخفي لتسييس الثَّقافة والفن والأدب خلال الحرب الباردة «الثَّقافية».

ولا شك أن السؤال الأهم: كيف تمكنت الكاتبة من الحصول على هذا الكم والحشد الرهيب من الأسرار والحقائق والأرقام والوقائع والصفقات والمؤامرات وعمليات التلاعب والخداع؟ وما هي الوثائق والمقابلات والأصول والأساليب التي أتاحت لها أن تخرج على العالم بكتاب على هذا القدر من الجرأة والجسارة؟ ولكي تتبين عوامل النجاح في الإنجاز الذي حققته لا بد من إطلالة سريعة عن حياتها. فهي باحثة وكاتبة قصة ومخرجة أفلام تسجيلية بريطانية،

حصلت على شهادة الشرف من كلية سانت آن في جامعة أكسفورد. وعملت مقدمة أفلام تلفزيونية في القناة الرابعة تحت عنوان «التاريخ المتنوع للحداثة»، وبرنامج: الأيدي الخفية: الفن والمخابرات المركزية. وقامت بتأليف أوّل كتاب هو «الحرب الباردة الثَّقافية». وقد صدرت الطبعة الأولى من الكتاب عام 1999 بعنوان «من الذي دفع للزمّار» في إشارة للحكاية الشعبية الأوروبية الشهيرة عن الزمّار الذي خلّص البلدة من الجراد والعمدة الشره الذي أراد أن يسلبه أجره. ثم صدرت طبعة أميركية بعنوان «الحرب الثَّقافية الباردة» عام 2000. أما الكتاب الثاني فهو «الرجل الإنجليزي الشيطاني»، وكذلك سيرة حياة المرأة التي أطلقت الرصاص على الديكتاتور موسيليني. وبالإضافة إلى ذلك اهتمت بكتابة القصة القصيرة، ونشرت قصتها (أمور جسيمة) في مجلة (كتابة جديدة) في عام 1998، وهي تقيم في لندن غير أن نشاطاتها تمتد عبر شاطئ الأطلسي، وتتركز حول التوثيق.

وتوضح الكاتبة بعض الصعوبات التي واجهتها قبل أن يرى كتابها النور، وتصفه بأنه كان في جوهره رحلة تشرد هائلة، انطلقت فيها ومعها ملفاتها وصناديقها الحافلة بالوثائق من مكان إلى آخر. وعلى الرغم من إشارتها لمن ساعدوها في جهدها، فإنها توضح بدايتها في توثيق وجمع وقائع الحرب الباردة الثَّقافية التي كانت تعلق آمالاً كباراً على الاستفادة من قانون حرية المعلومات الأمريكي في الكشف عن العديد من الوثائق الحكومية التي كانت محظورة في السابق، وتم كشف النقاب عنها، إلا أنها واجهت صعوباتٍ كبيرةً عندما تقدمت بطلب رسمي للحصول على وثائق ينطبق عليها القانون، لكنها لم تتمكن من الحصول عليها، إذ أوضح لها منسق المعلومات والخصوصية في الجهاز الأمريكي أن فرص التعامل الناجح مع الطلب الذي تقدمت به للحصول على الوثائق وفقاً للقانون الأمريكي من الـ«C.I.A» تؤول إلى الصفر بصورة فعلية.

ولم يكن أمام المؤلفة من بديل إلا اللجوء إلى الوثائق الموجودة في المجموعات الخاصة، حيث إن إدارات أمريكية متتابعة مدّت تعاونها إلى القطاع الخاص، وشاركت مع الخارجية

الأمريكية في صنع مقومات السياسة الخارجية مجموعة من الكونسرتيوم والمؤسسات والشخصيات شبه الحكومية، وقد أدى هذا إلى توفير إمكان التدقيق في العديد من العمليات، بما في ذلك العمليات السرية. وساعد في ذلك وجود أرشيفات ومكتبات تقدم ثروة حقيقية للباحثين، منها مكتبة (تاميمنت في نيويورك، جوزيف ريجنشتاين في شيكاغو، دوايت أيزنهاور في إبيلين، الأرشيفات الوطنية في واشنطن، بتلر في جامعة كولومبيا، مركز جورج ميني في واشنطن، مركز أبحاث هاري رانسوم في واشنطن، مكتبة لندون جونسون في أوستن بتكساس، مكتبة جون كينيدي في بوسطن، مكتبة هاري ترومان في أندبندنس، فضلاً عن مكتب السجلات العامة في لندن، ومكتبة جامعة ريدنج).

المحاور الرئيسة للكتاب:

تشير الكاتبة في مقدمة كتابها إلى النشاط المكثف الذي قامت به وكالة المخابرات الأمريكية عبر إدارة البرنامج السري للدعاية الثَّقافية في أوروبا الغربية في أوج الحرب الباردة من خلال افتتاح المراكز الثَّقافية الأميركية، وكانت الركيزة لهذا البرنامج هي منظمة الحرية الثَّقافية التي أوكلت إدارتها إلى رجل المخابرات «مايكل جوسلسون، وما بين عامي 1950 و1967 أصبح لهذه المنظمة مكاتب في 35 دولة، وأصدرت أكثر من 20 مجلة ذات نفوذ واسع النطاق، وقامت بتنظيم المعارض الفنية والمؤتمرات الدولية؛ بهدف تمهيد الطريق أمام المصالح الأمريكية والترويج للرؤية التي تتوافق مع «الأسلوب الأميركي».

وسوف تكون وقفاتنا مع الكتاب في ضوء بعض المحطات المهمة التي استعرضت فيها الكاتبة عبر ستة وعشرين فصلاً وخاتمة، تطور ثقافة الحرب الباردة للولايات المتحدة عبر عقدين من الزمن وفق استراتيجية ملتفّة بعباءة «الحرية الثَّقافية» و «الدفاع عن الإيمان» إلى أن تمزقت تلك العباءة عن «ضباب عفن» حسب تعبير السيناتور فولبرايت و «ورطة أخلاقية ومعنوية الخروج منها ليس سهلاً». وصاغ سيسيل دي ميل - عمل مستشاراً للحكومة الأميركية لشؤون السينما - رسالة الثَّقافة من خلال رؤيته لوظيفة السينما، حيث أسندت إليه مهمة

«صياغة الأهداف التي تسعى الولايات المتحدة لتحقيقها، والتي ستصل الجمهور المقصود الذي علينا كوسيط إعلامي أن نكيِّفه».

يتضمن الكتاب مجموعة من المحاور الأساسية، وجوهر ما تطرحه المؤلفة يدور انطلاقاً من الحقيقة القائلة إنه خلال الحرب الباردة وجد العديد من الكتّاب والأدباء والفنانين والمبدعين أنفسهم في مواجهة تحدٍّ هائل، ففي الاتحاد السوفييتي والدول الدائرة في فلكه كان من المتوقع منهم أن يقدموا أعمالاً تمجّد النزعة الكفاحية والنضال والتفاؤل المطلق، وفي الغرب جرى التباهي بحرية التعبير باعتبارها الجوهرة الأثيرة في تاج الديمقراطية الليبرالية، ولكن مثل هذه الحرية يمكن أن تكبّد من يحظون بها ثمناً باهظاً. وتحت هذا السقف يقدم الكتاب بانوراما هائلة للحملة السرية التي شنتها الـ «C.I.A» في تحويل عدد من أبرز أنصار حرية الثَّقافة والفكر إلى أدوات يجري التلاعب بها من جانب جهاز المخابرات الأمريكي. وتوضح سوندرز كيف تسلل الجهاز إلى كل ركن في المعمار الثَّقافي العالمي، وكيف قامت المنظمات والمؤسسات (الخيرية) التي تتخذها واجهة لنشاطها في هذا المجال، وقامت بعقد المؤتمرات وتنظيم المعارض والإشراف على الحفلات الفنية ونقل فرق الأوركسترا في مختلف أرجاء العالم، وتصدت لرعاية الفن التجريدي كرد على الواقعية الاشتراكية، ودعمت مشروعات باهظة التكلفة للنشر والترجمة، ودفعت بعناصر تابعة لها إلى دعم صحف ومجلات في أوروبا وغيرها من أرجاء العالم وإلى تغطية خسائرها.

يتمثل المحور الجوهري في بداية الحملة التي قامت بها وكالة المخابرات الأمريكية في عملية تطعيم ثقافي واسعة النطاق، من خلال بناء ما يمكن وصفه بأنه كونسورتيوم هائل – أي اتفاق شراكة بين أطراف متعددة - له مهمة مزدوجة تتفرع إلى عشرات المهام، حيث يتعين عليه تطعيم العالم ضد عدوى الشيوعية، وتسهيل تمرير مصالح السياسة الخارجية الأمريكية. كان هذا الكونسورتيوم يتشكل وفق تعبير هنري كيسنجر خلال مرحلة الحرب الباردة، من «أرستقراطية مكرسة لخدمة هذه الأمة بشكل أكثر من مجرد المناصرة»، وكان هذا الاتحاد

هو السلاح السري الذي اعتمدت عليه الولايات المتحدة لقهر خصمها وتكريس ثقافة مهيمنة على العالم. وهو سلاح له نتائج واسعة في ميدان الثَّقافة من أجل الاستيلاء على عقول البشر والتحكم بها، وقد ضم أبرز الشخصيات الثَّقافية الغربية، وكرست ترسانتها من الأسلحة الثَّقافية عبر مختلف الوسائل والأدوات التي يتم من خلالها الوصول إلى مبتغاها وتحقيق أهدافها. وقد بلغت سيطرة المخابرات الأمريكية درجة مخيفة على مجمل الحياة الثَّقافية عندما نجح السيناتور مكارثي في تكوين لجنة خاصة بالنشاط المعادي لأمريكا من تمرير مشروع قانون بالرقابة على الثَّقافة، ونجحت بإضافة عبارة «أمة واحدة تحت راية الرب..» لقسم الولاء، في إطار توظيف الإيمان في مواجهة الشيوعية.وحشدت لهذا الغرض موارد مالية وبشرية كبيرة، وكانت النتيجة شبكة محكمة من البشر تعمل جنباً إلى جنب مع ذراع المخابرات الأمريكية على الترويج لفكرة أن العالم بحاجة إلى سلام أمريكي، والى عصر تنوير جديد.

وعمل الجهاز على التغلغل في الشؤون الثَّقافية وفي تحريك المثقفين والأدباء والفنانين كقطع الشطرنج، والتلاعب بمقومات نطاق عريض من الأنشطة الإبداعية، ويثير ما تكشف عنه الوثائق مجموعة بالغة الخطورة من الأسئلة وعلامات الاستفهام المتعلقة بأنشطته على الجبهة الثَّقافية في مرحلة الحرب الباردة. فمن الجلي أن المخابرات الأمريكية قامت بتمويه استثماراتها في القطاع الثَّقافي، على أساس افتراض أن ما تقدمه سيتم رفضه إذا عرض صراحة وبلا تمويه، وكذلك يكشف عن الكثير من الكتّاب والمفكرين والفنانين الذين حققوا شهرة عالمية في تلك المرحلة، وهم من أصحاب المواهب المتواضعة. وقد أدى الطرح القائل إن العديد من المثقفين والأدباء والفنانين كانوا يتصرفون بتعليمات من صانعي السياسات الأمريكية، وليس انطلاقاً من معاييرهم المستقلة إلى إثارة موجات من التقزز والاستياء على مستوى لا يستهان به، والأمر الأكثر خطورة هو أن السلطة المعنوية والأخلاقية التي تمتعت بها الأنتلجنسيا -النخبة المثقفة - خلال مرحلة الذروة من الحرب الباردة تعرضت للاهتزاز بشدة وغدت موضع سخرية واستهزاء من جانب البعض.

أشار الكتاب إلى محطات مهمة للحرب الثَّقافية التي خاضتها الولايات المتحدة لمحاصرة الشيوعية على أراضيها وفي أوروبا سواء عبر الأدوات الثَّقافية، وأيضاً عبر استخدام التأثير الديني من خلال استخدام المسيحية في الحرب على الشيوعية بما يتناقض مع العلمانية التي تتبجح بها. وقد اعتمدت المخابرات الأمريكية أسلوب ضرب الخصم من الداخل وعبر رجالاته؛ لأنه أسرع في تحقيق النتائج من الهجوم الخارجي المكشوف. لذلك اعتمدت على المراكز الثَّقافية كالمجلات والصحف والندوات والجوائز وغيرها؛ بهدف تهميش الآخر وترسيخ النموذج الأمريكي، وهو من أخطر الأسلحة الناعمة التي تتغلغل في ثقافة الشعوب ومثقفيها من دون شعورهم بأنهم يمررون مخططات الخصم.

كان اعتماد الحرب الثَّقافية هو النمط الجديد في خداع الشعوب والسيطرة على مقدراتها. لذا فإن هذا الكتاب شاهد حقيقي على جانب من التفاصيل الدقيقة التي انتهجتها أميركا في بوصلة تعاملها مع الأحداث عبر مسار تسييس الثَّقافة، بعد أن شعرت بالخطر المحدق على مصالحها في أعقاب ضرب الأسطول الأمريكي باليابان عام 1941 فأسرعت بإنشاء «مكتب الخدمات الاستراتيجية» لغرض اكتشاف الخطر قبل وقوعه، والتخلص من مصدره بأي وسيلة متاحة. وفي خضم انشغال العالم بالتراكمات التي تركتها الحرب العالمية الثانية كانت الحكومتان السوفيتية والأمريكية تعيدان ترتيب أوراق الصراع والبحث عن أفضل الطرق للهيمنة على العالم، وتوسيع دائرة النفوذ من خلال زيادة مساحة الأنظمة السياسية التابعة أو المؤيدة أو المتعاطفة معهما في القارة الأوروبية. وقد كانت البداية عندما اعتمدت أميركا مبدأ ترومان عام 1947 ومشروع مارشال الذي يتلخص في اعتماد تقديم المساعدات الاقتصادية لدول أوروبا الغربية المهددة بأزمة اقتصادية؛ حتى لا يتم السيطرة عليها من قبل الأحزاب الشيوعية، وفي عام 1949 أعلن ترومان تأييد السلام العالمي وفق عدة محاور تضمن للإدارة الأمريكية تنفيذ خططها، وتتمثل بالتأييد المطلق للأمم المتحدة، وكسب الشعوب عبر الإصلاح الاقتصادي، وتقوية الأمم التي تعادي الشيوعية، وتقديم المعونات لتحسين أحوال مختلف بلاد العالم. وجميع ذلك تحت مظلة حلف الأطلنطي، وهي مبادئ يصعب الاختلاف بشأنها

وتبدو وكأنها إنسانية لصالح البشرية جمعاء. ولا تزال هذه المبادئ تحكم التوجهات الأمريكية إزاء كل الأزمات العالمية. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وهزيمة دول المحور لم يَعدْ أمام أميركا من منافس سوى الاتحاد السوفييتي، فبدأت مسيرة الحرب الباردة الثَّقافية مع تأسيس وكالة المخابرات المركزية من أجل الاستيلاء على العقول عبر السيطرة الثَّقافية.

وبعد أن أنشأت الحكومة الأمريكية جهاز المخابرات (CIA) في عام 1947 رأت ضرورة وضع استراتيجية ثقافية بإمكانها أن تقف في وجه الثَّقافة الشيوعية التي كانت تغزو العالم، وقد عمل على تجنيد عناصره من مختلف الأجهزة الأمريكية السيادية والعامة عبر شبكة واسعة وشديدة التأثير من رجال المخابرات وخبراء الاستراتيجية السياسية والمؤسسات الرسمية والجامعات؛ ليتولى الجانب الثَّقافي في الحرب الباردة. وكان أول أعماله تكوين واجهة ثقافية بهدف «تحصين العالم ضد وباء الشيوعية وتمهيد الطريق أمام مصالح السياسة الأمريكية في الخارج» واعتمد في ذلك على مجموعة من الراديكاليين ممن تحطم إيمانهم بالشيوعية حتى يكون خطابهم أكثر إقناعاً عبر قيامهم بمهمة نقد الشيوعية من خلال مختلف الوسائط الثَّقافية على أن يدور خطابهم حول ما الذي جعلهم يعتنقون الشيوعية، وما الذي جعلهم يتوبون عنها؟.

تعود جذور الحرب الثَّقافية الباردة إلى الحرب الطبقية. ففي وقت مبكر، بادرت وكالة المخابرات المركزية وعملاؤها في اتحادات العمال ومؤتمرات المنظمات الصناعية الأمريكية (AFLCIO)، إلى تجنيد كل من إيرفينغ براون وجيه لاستون (وهما شيوعيان سابقان) ومدّهم بملايين الدولارات لتصب في ميزانيات النقابات الاشتراكية الديمقراطية من أجل تفكيك النقابات الراديكالية وكسر إضراباتها. وتم تمويل ميزانية منظمة «من أجل الحرية الثَّقافية» ومثقفيها من قبل نفس عملاء وكالة المخابرات المركزية الذين جنّدوا رجال مافيات مارسي لقمع إضرابات عمال الموانئ.

بعد الحرب العالمية الثانية، وجراء ضعف الجبهة اليمينية القديمة في أوروبا الغربية

بسبب صِلاتها بالفاشيين والنظام الرأسمالي الضعيف، أدركت وكالة المخابرات المركزية أنه من أجل إضعاف النقابات والمثقفين المناهضين لحلف الناتو، يجب التوجه صوب إيجاد أو «ابتكار» ما عرف باليسار الديمقراطي للانخراط في الحرب الأيديولوجية. وتم إنشاء وحدة خاصة في وكالة المخابرات المركزية للتحايل على احتجاجات اليمين في الكونجرس الأمريكي. واستخدم اليسار الديمقراطي في الأساس لمحاربة اليسار الراديكالي، ولتأمين الهيمنة الأمريكية في أوروبا أيديولوجياً. ولكن لم تتم دعوة أيديولوجيي «اليسار الديمقراطي»، تحت أي ظرف من الظروف، للمساس بالسياسات والمصالح الاستراتيجية الأمريكية. فلم يكن السؤال عن ذلك من صلب وظيفتهم؛ وبدلاً من ذلك، يجب عليهم أن يخدموا الإمبراطورية الأمريكية تحت لافتة «القيم الديمقراطية الغربية». وعندما برزت المعارضة واسعة النطاق لحرب فيتنام في الولايات المتحدة وأوروبا، فقد هؤلاء أغطيتهم التنظيمية، وقفز العديد من المفكرين المدعومين من وكالة المخابرات المركزية من السفينة، وبدأوا ينتقدون السياسة الخارجية للولايات المتحدة. فعلى سبيل المثال، أصبح ستيفن سبندر ناقداً للحرب التي تخوضها أمريكا في فيتنام بعد أن أمضى معظم وقته في القائمة القانونية لوكالة المخابرات المركزية. كما بدأ بعض محرري Partizan بنقد سلوكهم وتعاونهم السابق مع وكالة المخابرات المركزية. وادّعى كل منهم براءته من تلك المواقف. ولكن قلة قليلة من هؤلاء ظلوا يؤمنون بعلاقة ودٍّ طويلة وعميقة مع العديد من الصحف والمجلات دون أن يعرفوا من يقف وراءها.

وكان لتدخل وكالة المخابرات المركزية في الحياة الثَّقافية للولايات المتحدة وأوروبا وأماكن أخرى عواقب بعيدة المدى. فقد تم منح العديد من المفكرين الامتيازات والجوائز وإبرازهم للجمهور. وبسبب من أنشطتهم الأيديولوجية السرية على وجه التحديد، تلقوا تمويلاً لبحوثهم من هذه الوكالة. وشارك بعضٌ من أكبر الأسماء في عالم الفلسفة والأخلاق السياسية وعلم الاجتماع والفنون في المؤتمرات والمجلات التي تمولها وكالة المخابرات المركزية. وبناءً على المعايير السياسية التي وضعتها الوكالة، فقد وضعوا معايير أخرى لجذب جيل الشباب. وأصبح تحديد المكانة الأكاديمية ومكانة المؤسسات والمتاحف حسب معايير «الحقيقة»و«التميز»

التي تؤمن بها واشنطن، وليس حسب الجدارة أو المهارة المهنية.

لقد غدت أفكار وآراء «اليسار الديمقراطي» الأمريكي والأوروبي المناهض للستالينية وإعلانات الإيمان بالقيم الديمقراطية والحرية غطاءً أيديولوجياً قوياً لتبرير الجرائم الوحشية للغرب. ففي حرب الناتو الأخيرة ضد يوغوسلافيا، انحاز العديد من المثقفين اليساريين مرة أخرى إلى جانب القوات الغربية وجيش تحرير كوسوفو (KLA) أثناء حملة التطهير الدموي لعشرات الآلاف من المواطنين الصرب وقتل الآلاف من المدنيين الأبرياء. إذ كانت مناهضة الستالينية هي أفيون «اليسار الديمقراطي» خلال الحرب الباردة.

أما بالنسبة للمفكرين غير السياسيين والأكاديميين والفنانين المنفصلين عن النضالات الجماهيرية والأحزاب اليسارية التقدمية، فقد أصبحت النشاطات الثَّقافية لوكالة المخابرات المركزية نموذجاً جذبتهم لإبعاد أنفسهم عن الطبقة العاملة وتقربهم من المؤسسات ذات الشهرة. ونجحت وكالة المخابرات المركزية في الحماية الأيديولوجية للمثقفين الذين لا يكتبون عن الصراع الطبقي الأمريكي، أي الفئات «الأيديولوجية وليست الموضوعية» أو أي فئة من هذا القبيل.

وللدلالة على الدور الثَّقافي الذي لعبته المخابرات يكشف الكتاب وبحسب مؤلفته تجنيد أسماء بارزة في مجال الفكر والثقافة سواء بعلمهم وبموافقتهم أو دون ذلك، إذ لم يكن الكثير من الكتاب والمثقفين يعلمون أنهم يشاركون في مشروعات وأعمال تمولها المخابرات الأميركية، وبعضهم عندما اكتشف ذلك بعد سنوات طويلة اعتزل عمله، ومن هؤلاء ماركسيون سابقون مثل الفيلسوف برتراند راسل، جورج أورويل، أرنولد توينبي، هربرت سبنسر، سيدني هوك، وروبرت لويل، حنا أرنت، آرثر ميللر، إيليا تولستوي (حفيدة الروائي الروسي الشهير)، أندريه مالرو، جون ديوي، كارل ياسبرز، إلبرتو موارفيا، هربرت ريد، ستيفن سبندر، أودن، نارايان (الهندي)، ألن تيت، إيتالو كالفينو، فاسكو براتوليني، فضلاً عن الفنانين تشارلي شابلن، ومارلون براندو وآخرين. ويتضح دور المخابرات الخطير من خلال قيامه بتغيير بعض أحداث

ونهايات روايات جورج أورويل، مثلما حدث مع روايات «مزرعة الحيوانات»، ورواية «1984» لتخدم أهدافها، وقامت بتمويل الفيلم الكرتوني مزرعة الحيوانات، المأخوذ عن رواية أورويل ووزعته في أنحاء العالم، وقامت بوضع نهايتين مختلفتين للفيلم المأخوذ عن رواية 1984 واحدة للجمهور الأمريكي، والأخرى للجمهور البريطاني.

وكانت ردة الفعل السوفيتية التعبير عن الاستياء ووصف التوجهات الأمريكية «باستعمار الدولار» وأعلن عن تأسيس «الكومينفورم» – مكتب الإعلام الشيوعي - وهي منظمة للمبادئ الشيوعية حلت محل الكومينترن «الأممية الشيوعية». وبعدها كون حلف وارسو وأقام منظمة الكوميكون «سوق اقتصادية مشتركة» وبقي الصراع الأمريكي السوفيتي مستمراً لا سيما في ساحة العالم الثالث عبر الانقلابات والحروب الإقليمية، ومحاولة تعطيل مشروعات الآخر في أروقة الأمم المتحدة. واتجهت السياسة الأمريكية إلى جبهة الثَّقافة العريضة وتقديم النموذج الرأسمالي ثقافياً بما يشمله من أفكار وفنون وآداب وعلوم، في محاولة لتغيير أذهان الشعوب وتأليبها ضد الشيوعية، بعد أن أدركت أن مشروع مارشال والنقطة الرابعة لا يمكنه إزالة الشيوعية وتصدر الرأسمالية، فعملت على إحداث التحول التدريجي من الثَّقافة الشيوعية إلى الثَّقافة الرأسمالية من خلال: يد تقدم الخبز ويد تقدم ثقافة الخبز.

بدأ النشاط الثَّقافي السوفيتي عندما تم افتتاح بيتٍ للثقافة في برلين لبناء ثقافة شيوعية وسارع الأمريكيون من أجل حماية الصورة الأمريكية التي ترسمها وسائل الدعاية في خيال الآخرين بافتتاح مراكز ثقافية في مختلف بلاد العالم لتقديم الثَّقافة الأمريكية من خلال عروض السينما والموسيقى والمعارض الفنية والمحاضرات العامة، وكانت صلاحيات جهاز المخابرات مطلقة من حيث الأنشطة التي يقوم بها عبر التخريب والتدمير والانقلابات والاغتيالات وغيرها من الوسائل في الدول المعادية لها، وبشكل لا تظهر معه أي مسؤولية للحكومة الأمريكية. أو من خلال التمويل اللازم لنشاطاته دون تقديم بيانات عن أوجه الصرف حتى لا يترك مستند يدل على دور للحكومة الأمريكية.

كانت بداية أعمال الجهاز هو العمل على كشف الشيوعيين الأمريكيين وتعريتهم

أمام مجتمعهم، وكذلك أعدّت قوافل من الموسيقيين في جولة حول العالم لتقديم الذوق الأمريكي، وأيضاً شكلت «اللجنة القومية من اجل أوروبا الحرة» لمواجهة السيطرة السوفيتية من خلال توظيف المهارات المتنوعة لليهود الشرقيين في المنفى لتحقيق هذا الهدف، ولإحكام السيطرة على الفكر الشيوعي قامت بتأسيس «منظمة الحرية الثَّقافية» والذي تحول لاحقاً إلى «الاتحاد الدولي للحرية الثَّقافية» وأنشأت تلك المنظمة فروعاً تم اختيارها بعناية، وقامت بإصدار مجلات وإقامة معارض فنية وحفلات موسيقية بهدف تكسير الوعي بالشيوعية عند المثقفين من أجل أن يتواصل الجميع مع النموذج الأمريكي في الحياة. وقد نجحت تلك المنظمة في إقامة مختلف الواجهات الفكرية والإعلامية والفنية والتجارية بهدف مواجهة الشيوعية والعمل على اجتثاث جذورها. وكانت المخابرات وراء إصدار عدة مجلات ثقافية تهدف جميعها إلى تشويه الشيوعية بأسلوب غير مباشر.

وشغلت مجلة «إنكاونتر- Encounter» التي صدرت بين عامي 1953 و1990 موضعاً مركزياً في التاريخ الثَّقافي، وقامت بنشر مجموعة من الدراسات الأدبية والنقدية لكتاب وباحثين كبار مثل أرنولد توينبي وبرتراند راسل، وكانت مجلة واضحة الأيديولوجية وهي معاداة الشيوعية، وترتبط ارتباطاً شديداً بعالم المخابرات، ووصفها أحد ضباطها الكبار غوسلسلون بأنها أعظم ما في مقدراتنا. وكانت المخابرات البريطانية تدعم مجلة تريبيون وبدا للمخابرات البريطانية والأميركية أن أفضل وسيلة للعمل الثَّقافي المضاد للشيوعية هو تشجيع خطاب يساري متحرر من لغة الكرملين، واختير شاب أميركي يساري هو إيرفنج كريستول ليحرر مجلة تخدم هذا الغرض، وكان يعمل مديراً لمجلة كومنتري، والبريطاني ستيفن سبندر وهو يساري خريج أكسفورد. ومن المجلات الأخرى التي رعتها منظمة الحرية الثَّقافية «بريف» الفرنسية و«كوادرنوز Cudernos» الموجهة لمثقفي أميركا اللاتينية التي صدرت من باريس عام 1953 برئاسة تحرير الروائي والكاتب المسرحي جوليان جوركن، ومجلة «فورم Forum» التي صدرت في النمسا عام 1954 ويحررها فريدريك توريبغ، ومجلة العلم والحرية التي صدرت عام 1953 بعد مؤتمر العلم والحرية في هامبورغ، وكان يحررها مايكل بولاني وتنحو نحو تشجيع

التهدئة في العلاقات الدولية والتبادل الثَّقافي مع الكتلة السوفياتية، ومجلة «سوفيات سيرفي» Soviet Survey التي صدرت عام 1955 برئاسة وولتر لاكير ممثل منظمة الحرية الثَّقافية في الكيان الصهيوني، وقدمت المجلة أبحاثاً مهمة عن الحياة الثَّقافية والفنية والسياسية في الكتلة الشرقية، وكانت بعض الصحف الشيوعية تنقل عنها، وكذلك مجلة «تيمبو برزنت Tempo Presente» في إيطاليا والتي صدرت عام 1956 برئاسة أغناريو سيلوني وكانت قريبة الشبه من مجلة سارتر «الأزمنة الحديثة» Letemps Modernes، وصدرت في الهند مجلة «كوست Quest» عام 1955 وفي اليابان مجلة «جيو Jiyu» التي كانت تعمل على تخفيف العداوة لأميركا في اليابان.

وتوقفت مجلة إنكاونتر أهم مجلات الـ CIA عام 1990 وكانت في سنواتها الأخيرة قد ضعفت وتراجعت. وأما أولئك الذين خدموا في حرب ثقافية انتهت فجأة بنهاية الثمانينيات فقد أحيلوا إلى أعمال مدنية بعيدة أو عزلة نائية وبعضهم تقاعد قبل ذلك وودّعوا الخدمة بأوسمة ومكافآت مالية. وبعد سقوط حائط برلين التقى ضباط الـCIA بضباط المخابرات الروسية وتساءل خبراء الدعاية من الطرفين عن جدوى وأهمية مجلة إنكاونتر، وتبين أن الروس كانوا يقرؤونها باهتمام كبير لدرجة أن لايكي رئيس تحرير المجلة فوجئ كثيراً بهذا الاهتمام غير المتوقع.

أما في مجال الفن والسينما فلم يكن الاختراق والتوجيه مختلفاً عن الثَّقافة والأدب، إذ كانت هيئة السينما المنبثقة عن المخابرات الأميركية تمول المعارض والمهرجانات وتستقطب الفنانين والمخرجين، وكانت الهيئة تملك شبكة عمل وتوزيع في 87 دولة وتتمتع بدعم حكومي هائل. ويتدخل رجالها في مراحل الإعداد للأفلام والأعمال الفنية والمسرحية بالحذف والتغيير والإضافة وفق إستراتيجية محددة في أذهانهم قائمة على معاداة الشيوعية وترويج الثَّقافة الأميركية والتغاضي عن عيوبها وأخطائها.

وكانت منظمة الحرية الثَّقافية وراء فوز شاعر شيلي الشهير نيرودا بجائزة نوبل لعام

1964 ولم يفز بها إلّا عام 1971حين كان سفيراً في فرنسا لحكومة سلفادور الليندي الموالية للديمقراطية، ومع هذا قتلته المخابرات الأمريكية بعد فوزه بعامين. وخلال عنفوان الحرب الباردة في منتصف الستينيات من القرن العشرين كان لنادي القلم الدولي 76 فرعاً في 55 دولة وبذلت المخابرات الأمريكية كل ما تستطيع لتحويله إلى منبر لخدمة المصالح الأمريكية.

ومن أكثر الدلائل أهمية وإثارة في كتاب سوندرز هي حقيقة قيام وكالة المخابرات المركزية وحلفائها بإنفاق مبالغ كبيرة للترويج للفن التجريدي في متحف الفن الحديث في نيويورك، والذي كان يعرض أعمالاً متحررة من القواعد الفنية المتعارفة في مواجهة الفنون ذات المحتوى الاجتماعي باعتبار أن التحرر من تلك القوالب والوقوف إلى جانب التعبير التجريدي يعدُّ رمزاً للديمقراطية. لذا فإن نشاط المخابرات الأمريكية في عالم الفن والأدب لإعادة بناء البنية الثَّقافية في العالم بهدف تأجيج مشاعر الكراهية ضد الشيوعية، والسعي لترسيخ النموذج الأمريكي، يؤكد دور الثَّقافة وسرعتها في التأثير على الوعي من خلال الرواية الأدبية والدراما والمعارض الفنية والحفلات الموسيقية. بدليل أنه عندما سقط حكم الأحزاب الشيوعية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي لم يجد هذا السقوط مقاومة من الجماهير التي كانت تتشرب على مدى أكثر من أربعين عاماً وبالتدريج ثقافةً معادية للشيوعية، الأمر الذي أثبت أن تغيير نمط في السلوك والفكر أقوى تأثيراً من تغيير نمط الإنتاج الذي تعوِّل عليه الماركسية.

ورأت وكالة المخابرات المركزية أن مهمتها الترويج لأيديولوجية مناهضة الشيوعية وأيديولوجية الليبرالية والأعمال الحرة؛ أي أن نقيض الواقعية هو الجهل والصمت السياسي. لقد اعتبروا أن الفنون التجريدية هي التعبير الحقيقي عن الإرادة الوطنية. ومن أجل التحايل على الانتقادات الصادرة من بعض الأوساط اليمينية، لجأت وكالة المخابرات المركزية إلى القطاع الخاص أي «Moma» (متحف الفن الحديث)، الذي أسسته آن نيلسون روكفلر تحت لافتة «لوحات السوق الحرة». ولطالما ارتبط العديد من المديرين التنفيذيين «Moma» بوكالة

المخابرات المركزية واستخدموا كسلاح في الحرب الثَّقافية الباردة. وأقيمت معارض في جميع أنحاء أوروبا. وجرى تعبئة نقاد الفن، ونشرت المجلات الفنية مقالات الثناء. وضمنت الموارد الاقتصادية المشتركة لـ "MOMA" مع مؤسسة "Fair Field" التي ترعاها وكالة المخابرات المركزية، التعاون مع المعارض الأوروبية المرموقة، والتي بدورها تمكنت من التأثير سلباً على الجماليات في جميع أنحاء أوروبا.

وبفضل التعاون مع منظمة الحرية الثَّقافية أصبح متحف الفن الحديث يستطيع الوصول إلى أرقى المؤسسات الفنية في أوروبا، ويكون له التأثير الواسع على الذائقة الفنية هناك، فصُعقت الحركة الفنية بكاملها، حيث أصبحت مشروعاً تجارياً ضخماً. إذ كان متحف الفن الحديث: «أكثر أشكال الفن حرية، يفتقر إلى الحرية. فنانون أكثر وأكثر، أصبحوا ينتجون أكثر وأكثر، أعمالاً أكبر وأكبر، خاوية أكثر فأكثر». وتسلط الكاتبة الضوء على منظمة الحرية الثَّقافية الأمريكية في مراحل صعودها وهبوطها، لتكشف بذلك الهيمنة الأمريكية عبر عمليات التجسس في مجال الثَّقافة والآداب والفنون، من خلال جهود «جوسلسون» العقل المدبر لحملة الدعاية الثَّقافية الأمريكية المضادة للسوفييت، والذي يقول عنه توم برادن بأنه: واحد من أبطال العالم المجهولين. وكان معه فريق يتكون من ميلفن لاسكي، وفلاديمير نابوكوف، وجان كوكتو، وغيرهم، الذين أسسوا مجلة «ديرمونات» التي كرست لبناء جسر أيديولوجي بين المثقفين الألمان والأمريكيين، واجتذابهم بعيداً عن التأثير الشيوعي ولتمهيد الطريق أمام المصالح الأمريكية، وكانت بمثابة المعبد لعقيدة ترى أن النخبة المثقفة يمكنها أن توجه عالم ما بعد الحرب، وأن تنقذه من الهلاك، لذلك عملت على كسب النخبة الثَّقافية الغربية لحساب الطرح الأمريكي، واستخدام الشيوعيين السابقين لمكافحة الشيوعية.

ومن أهم استراتيجيات العمل في وكالة المخابرات المركزية C IA السعي لتقوية اليسار غير الشيوعي الذي يعدُّ الأساس النظري للعمليات السياسية ضد الشيوعية على مدى عقدين من الزمن. وذلك عبر عملية شراء الحرية أولاً، ثم تقييدها بعد ذلك، باسم حرية التعبير. ومن

الواضح أن موقف الولايات المتحدة الانتقائي من الثَّقافة والمعرفة، يكشف عملية التزييف التي تروج لفكرة أن أمريكا مجتمع ديمقراطي متقدم يشكل فضاءً للصراع العقلاني الفكري والسياسي، ويكشف هذا الموقف عن التعامل الأمريكي مع الثَّقافة سياسياً، وتقرر بالتالي مصير الثَّقافة في مشهد يستدعي الموقف من العلم والعلماء والفلاسفة في القرون الوسطى.

لقد تم استخدام «AE» (الفن التجريدي) باعتباره إيديولوجية «الفن الحر» لمهاجمة الفنانين الملتزمين في أوروبا. وعبّأ «المؤتمر من أجل الحرية الثَّقافية» كل قواه لدعم الفن التجريدي مقابل الفن الواقعي. ففي ملاحظة حول الدور السياسي لـ AE، لاحظت الكاتبة سوندرز أن «من خصائص السمات غير العادية للدور الذي لعبه الفن الأمريكي في الحرب الباردة أنه لم يعدْ جزءاً من صفقات رجال الأعمال، بل أصبح الفن حركة تعمدت تسييس طبيعتها غير السياسية». واستطاعت وكالة المخابرات المركزية ومنظماتها الثَّقافية أن تشكل بعمق وجهات النظر الفنية بعد الحرب. وأعلن العديد من الكتاب والشعراء والفنانين والموسيقيين المشهورين استقلالهم عن السياسة، قائلين إنهم يؤمنون بـ «الفن من أجل الفن». وبلغ مصطلح فنان أو مثقف حر ذروته كشخص ليس له انتماء سياسي ويستمر هذا حتى اليوم.

أما بالنسبة لمسألة التمويل فقد ضخت المخابرات الأميركية عشرات الملايين من الدولارات على مدى سنوات لمنظمة الحرية الثَّقافية، وأنشأت أيضاً منظمة أوروبا الحرة التي كانت تدير إذاعة أوروبا الحرة ومقرها برلين، وكانت موجهة إلى دول أوروبا الشرقية وتبث بست عشرة لغة، وكانت تتصل بالعاملين في الخدمات الإعلامية خلف «الستار الحديدي» وترصد الإذاعات الشيوعية وتبث المحاضرات والكتابات المعادية للشيوعية. وتلقّت المنظمة تمويلاً كبيراً يمرر تحت غطاء منظمة «حملة الحرية» التي كانت تجمع التبرعات، وكان المتحدث باسم هذه الحملة الممثل «رونالد ريغان» (رئيس أميركا فيما بعد)، وكانت هذه الحملة لافتة لتمرير الأموال وغسلها.

وكذلك عُبّئت مؤسساتٌ تبدو طوعية مثل مؤسستي فورد وروكفلر في الحرب السياسية على الشيوعية، حيث قدمت منحاً مالية كبيرة لأنشطة ترعاها وتنسقها المخابرات الأميركية، مثل شراء كتب وأعمال روسية ممنوعة وتمويل معهد الفن المعاصر والدعم المباشر لمنظمة الحرية الثَّقافية. وكان يرأس مؤسسة روكفلر وفورد ساسة وقادة كبار في العمل السري الأميركي مثل جون فوستر دالاس، ودين راسك، وجون مالكوي، وكان نيلسون وديفد روكفلر نفساهما ضالعين في العمل الاستخباري وتربطهما بدالاس علاقة شخصية وثيقة، وكانا يزوِّدان الوكالة بتمويل خارج الموازنة الرسمية، وهذه الصفقات الحرة أعطت معنى جديداً للمغامرة الأميركية في أثناء سنوات الحرب الباردة.

كما أجريت عملية مسح ومراجعة للكتب المتاحة في المكتبات العامة. وقد أعدت قائمة بثلاثين ألف كتاب يجب حظرها من بينها مئات الأعمال للكتاب والفنانين الأميركيين، وشملت القائمة السوداء كتاباً مثل شارتر، وراشيل هاميت، وهيلين كاي، وجين ويلتفش، ولانغستون هيوز، وأدوين سيفر، وبرنارد ستيرن، وهووارد فاست، وجون أبت، وجيه جوليور، وماركوس سنجز، وناثانديت، ومكسيم غوركي، وتروفيم ليسنكو، وجون ريد، وآجنس سميدلي، وهيرمان ميلغي.. وكانت لجنة برئاسة مكارثي تلاحق الكتب والكتاب والمثقفين وتأخذهم بالشبهة أو لمجرد رأي سياسي أو موقف فكري، فالكاتب الشهير توماس مان الحائز على جائزة نوبل تعرض لاضطهاد وتجاهل؛ لأنه كما وصفه المكارثيون متساهلاً مع الشيوعية.

وقد تلقت دور النشر الأمريكية والأوروبية المعادية للشيوعية، بما في ذلك «Partisan Review» و«Kenyon review New Leader» و «Encounter» والعديد من دور النشر الأخرى، تمويلاً مباشراً وغير مباشر من هذه المنظمة. ومن بين المفكرين الذين تم دفع الرواتب لهم أو تلقوا الدعم من قبل وكالة المخابرات المركزية في الولايات المتحدة وأوروبا، يبرز اسم إيرفينغ كريستول وميلفين ج. لاسكي وإشعياء برلين وستيفن سبندر وسيدني هوك ودانيال بيل ودوايت ماكدونالد وروبرت لويل وهانا أرندت وماري مكارثي وآخرون لا حصر لهم. وحرصت

وكالة المخابرات المركزية، وخاصة في أوروبا، على دعم «اليسار الديمقراطي» أو اليساريين السابقين، بما في ذلك إجناسيو سيلون وستيفن أسيسر وآرثر كيستلر وريموند آرون وأنتوني كروسلاند ومايكل ياسلسون وجورج أورويل.

وقامت وكالة المخابرات المركزية تحت قيادة سيدني هوك وميلفن ج. بتخصيص ميزانية لمنظمة «مؤتمر الحريات الثَّقافية»، وهي نموذج من طراز حلف الناتو «الثَّقافي» المكون من جميع أنواع الجماعات اليسارية واليمينية المناهضة للشيوعية». وتمتع هؤلاء بكامل الحرية في الدفاع عن الثَّقافة الغربية وقيمها السياسية. وشنوا حملة ضد ما سمي بـ «الاستبداديين الستالينيين»، وتحدثوا بهدوء وبحذر شديد عن نظام التمييز العنصري للإمبريالية. وبادروا في بعض الأحيان إلى نشر مقال هامشي غير مهم لجماهير أمريكا في مجلة ترعاها وكالة المخابرات المركزية. والغريب في هذه المجموعة من المثقفين المدعومين من قبل تلك الوكالة أنهم لم يكن لهم انتماء سياسي، بل التزامهم بالبحث عن الحقيقة، وهم يتلقون هذا الدعم تحت ستار من الدعوات الإنسانية لمثقفين من ذوي التفكير الحر، أو لفنانين في خدمة الفن الذين يقفون في وجه المفسدين «الملتزمين» في المنظمات اليسارية! إنه لمن المستحيل تصديق الادعاء بأن لا علاقة لهؤلاء بوكالة المخابرات المركزية. فكيف يمكن تفسير صمتهم في جميع المجلات وعدم توجيه أي انتقاد لعمليات القتل التي لا حصر لها للسود في جميع أنحاء جنوب الولايات المتحدة طوال حياتهم؟ وكيف نفسر تجنب مؤتمراتهم الثَّقافية توجيه أي انتقاد للتدخلات الأمريكية في غواتيمالا وإيران واليونان وكوريا، هذه التدخلات التي أدت إلى قتل الملايين من الأبرياء؟ وكيف يمكنهم أن يقدموا تبريراً عن أي جريمة في المجلات التي يكتبون فيها؟ لقد كان هؤلاء جميعاً جنوداً: بعضهم تافه، وبعضهم الآخر مثير للجدل مثل ملفين لاسكي وسيدني هوك! لكن هناك كتّاباً آخرين طيبين مثل ستيفن سبندر أو جواسيس على الهامش من أمثال جورج أورويل.

وتتحدث سوندرز في الكتاب عن «الشخصيات الأنجلو- ساكسونية البيضاء» (WASP)

في وكالة المخابرات المركزية، وكيف سمح للناشطين اليهود اليساريين سابقاً بتشتيت اجتماعات الفئات اليسارية المعارضة. وتلافت وكالة المخابرات المركزية هذه الفضيحة عندما انكشفت الحقيقة في أواخر الستينات مما أثار غضب «المثقفين» في نيويورك وباريس ولندن جراء استخدامهم. ويوضح توم برادن، الذي كان يدير فرع وكالة المخابرات المركزية في المنظمات الدولية، أنهم جميعاً يعرفون جيداً أنهم يتلقون رواتبهم ويتمتعون بالمزايا من وكالة المخابرات المركزية. إذ قامت تلك الوكالة كما يؤكد برادن بتمويل نشر أدبيات المؤيدين المتحمّسين لوكالة المخابرات المركزية كورد ماير هوك وكريستال ولاسكي. أما فيما يتعلق بالمطبوعات المستقلة الأكثر شهرة لـ «اليسار الديمقراطي» مثل (المواجهة، القائد الجديد)، فكتب برادن أنه تم دفع رواتبهم من قبل وكالة المخابرات المركزية، وتم تعيينهم محررين لـنشرة «المواجهة». ويشير برادن أنه حتى عام 1953 كنا نشطين ومؤثرين في كل المجالات وفي كل منظمة دولية.

وتنفي سوندرز مزاعم هوك وكريستال ولاسكي بأن وكالة المخابرات المركزية ومؤسساتها الصديقة تساعدهم دون أي التزام منهم، وتشير إلى أن «الأفراد والمنظمات التي تساعدهم وكالة المخابرات المركزية يتم استخدامهم كجزء من الحرب الدعائية». إذ أن الدعاية الأكثر فاعلية، كما حددتها وكالة المخابرات المركزية، هي أن «أي موضوع ينبغي أن يعبر عن المُثل العليا للكاتب، بحيث يبدو أنه ينبع من صلب أفكاره». وتقدم وكالة المخابرات المركزية المساعدات السخية والتسهيلات في النشر للأفراد والمجلات المرتبطة بـ «اليسار الديمقراطي» عند التحدث عن الإصلاح الاجتماعي إذا كان يصب في إطار مناهضة الشيوعية ومناقشات أدبية ضد الماركسيين الغربيين والكتاب والفنانين السوفييت. ويشير برادن إلى ذلك على أنه «التقاء» بين وكالة المخابرات المركزية و «اليسار الديمقراطي» في أوروبا في النضال ضد الشيوعية. وشمل التعاون بين اليسار الديمقراطي ووكالة المخابرات المركزية حتى عند التصدي لإضراب عمال النقل في فرنسا، وتبادل المعلومات عن «الستالينيين» أورويل وهوك، والحملات السرية لمنع الاعتراف بالفنانين اليساريين.

وجهت وكالة المخابرات المركزية كل اهتمامها صوب أوروبا وشنت الحرب الباردة الثَّقافية. بعد أن عارضت الغالبية العظمى من المثقفين الأوروبيين والنقابات العمّالية النظام الرأسمالي، ولا سيما معارضتهم لهيمنة الولايات المتحدة، بعد ما يقرب من عقدين من الركود الاقتصادي وتراجع فرص العمل. وتبعاً لذلك، أعدت وكالة المخابرات المركزية خططاً من مرحلتين لمواجهة جاذبية الشيوعية ونمو الأحزاب الشيوعية، خاصة في فرنسا وإيطاليا. وتوضح سوندرز من ناحية أخرى قضية تشجيع بعض الكتاب الأوروبيين كجزء من تطبيق «البرنامج المناهض للشيوعية». فالمعايير المتبعة في الوكالة هي نشر «النصوص المناسبة» التي تشمل «توجيه الانتقاد للسياسة الخارجية السوفيتية وللشيوعية تحت ذريعة أن يكون نظام الحكم حقيقياً ومقنعاً وفي الوقت المناسب». ووفقاً لسيدني هوك وميلفين لاسكي المتحمسين لجمع الأموال للأدب المفلس، الذين اعتبروا أن مثل هذه المخاوف الزائفة ما هي إلاّ مجرد أداة في أيدي الشيوعيين. وكان من الممكن أن يكف العديد من المجلات السياسية والأدبية المعادية للشيوعية عن الصدور منذ فترة طويلة لولا الدعم والتمويل من قبل وكالة المخابرات المركزية، فقد قامت بشراء آلاف النسخ من منشوراتها ووزعتها مجاناً.

وكانت وكالة المخابرات المركزية مهتمة بشكل خاص بنشر أعمال الشيوعيين السابقين مثل: سيلونه وكوستلر وجيد. ورعت الوكالة كونفرنسات الكتاب المناهضين للشيوعية وتحملت نفقاتها في باريس وبرلين وبيلاجيو، وقدمت الدعم للكتاب المعادين للشيوعية. وتكشف الكاتبة عن تأييد علماء الاجتماع والفلاسفة المحايدين مثل: أشعيا برلين ودانييل بيل وتشيسلو ميلوش القيم والفضائل والحريات والاستقلال للمفكرين الغربيين تحت ستار معايير معادية للشيوعية ومؤيدة لواشنطن. وبلغ الأمر حداً أن أياً من هؤلاء المثقفين البارزين لم يجرؤ على طرح أي تساؤلات حول المجازر في الهند والصين أو الجزائر، أو مطاردة المثقفين الأمريكيين، أو مذابح السود في جنوب الولايات المتحدة على يد مليشيات كوكلس كلان.

وكانت العملية الثَّقافية الثانية التي نفذتها وكالة المخابرات المركزية أكثر دقة. فقد

جرى الترويج للحفلات الموسيقية والمعارض الفنية والباليه والفرق المسرحية وموسيقيي الجاز والأوبرا المشهورين؛ بهدف تحييد المشاعر المعادية للإمبريالية في أوروبا، ومحاولة خلق شعور يفيد بأن الحكومة الأمريكية تسعى إلى تشجيع الثَّقافة. وكان هدفها من وراء هذه السياسة الترويج للثقافة الأمريكية حصراً من أجل فرض الهيمنة الثَّقافية لدعم إمبراطوريتها العسكرية والاقتصادية. وكانت وكالة المخابرات المركزية حريصة بشكل خاص على إرسال الفنانين السود، وخاصة المغنين مثل ماريون أندرسون، إلى أوروبا، وكذلك الكتاب والموسيقيين مثل لويس أرمسترونغ. ويتم حذف أي مثقف أسود من هذه الفعاليات في حالة انتقاده لهذا السيناريو، كما حصل مع المؤلف ريتشارد رايت.

ويمكن رؤية مدى سيطرة وكالة المخابرات المركزية السياسية على الأنشطة التي تبدو غير سياسية للمثقفين بوضوح في رد فعل المحررين (لاسكي وكريستول وآخرين) في مقال لدوايت ماكدونالد الذي كان مفكراً فوضوياً، وتعاون لفترة طويلة مع مؤتمر «الحرية الثَّقافية والمواجهة» الذي تديره وكالة المخابرات المركزية. وفي عام 1958 كتب مقالاً بعنوان «أمريكا أمريكا»، عبّر فيه عن تمرده على ثقافة الجماهير الأمريكية وماديتها البدائية وغير المتحضرة. وشكل هذا المقال رفضاً للقيم التي روجت لها الدعاية المادية المبكرة لوكالة المخابرات المركزية في الحرب الثَّقافية ضد الشيوعية.

وتشير الكاتبة إلى الهدف من إنشاء قسم المنظمات الدولية الـ «IOD» والذي يتمثل في توحيد المثقفين ضد كل ما كان يقدم في الاتحاد السوفيتي، من أجل توحيد مختلف الأنشطة الثَّقافية؛ بهدف إثبات أن الغرب والولايات المتحدة كانوا مخلصين لحرية التعبير، وقد أصدر برادن تعليماته لتلك المراكز التي أُنشئت في أوروبا من خلال أن يكون الدعم المالي محدوداً بحيث يبدو معقولاً، ويجب أن لا يظهر الاهتمام بمصالح الولايات المتحدة، وعدم تأييد كل جوانب السياسة الأمريكية.

كان هجوم ماكدونالد على «الإمبراطورية الأمريكية الفاسدة» خارج نطاق تحمل

وكالة المخابرات المركزية ومثقفيها. وأوضح برادن مخاطباً المثقفين، «لا يتعين على المنظمات التي تتلقى أموالاً من وكالة المخابرات المركزية أن تدعم جميع وجهات النظر والسياسات الأمريكية، ولكن هناك بالتأكيد خطاً أحمر، خاصة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية الأمريكية. ولم يتم قبول المقال على الرغم من حقيقة أن ماكدونالد كان محرراً في السابق لـمجلة En-counter ففي العدد اللاحق من Encounter ، كتب نيكولا شيار مونتي، أحد كتاب الحرب الباردة الثَّقافية، أن مهمته كانت تتحدد في قدرة كل مفكر على الشك في موقفه دون إذلال. ومهمتنا هي كشف التصورات والامتناع عن «الأكاذيب البيضاء»، فالحقائق عند التعامل مع «الأكاذيب المفيدة» للغرب ليست بالتأكيد من مهمة المحررين المرموقين.

لم يكن لمؤتمرات الحرية الثَّقافية التي رعتها وكالة المخابرات المركزية ودفاعها الثابت عن السياسات الأمريكية أثرٌ دائم على النطاق العالمي. إذ إن نجاحهم يتحدد في إجبار جيل من المثقفين الذين تعارضت أفكارهم مع الجدل المستمر حول التأثير الثَّقافي والسياسي في وسائل الإعلام بأكملها. ولا يهم ما إذا كان المثقفون أو الفنانون اليوم يتخذون موقفاً تقدمياً بشأن هذه القضية أو تلك. فالمشكلة تتمثل في الاعتقاد السائد بين الكتاب والفنانين بأنهم إذا أرادوا أن تحظى أعمالهم في الموسيقى والرسم والكتابة باهتمام فني جاد، فيجب أن تكون أعمالهم خالية من المحتوى السياسي والاجتماعي والمعادي للإمبريالية. وكان الانتصار السياسي الدائم لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية هو إقناع المثقفين بأن الولاء الجاد والدائم لليسار لا يتوافق مع الفن الجاد والمعرفة. وتظهر اليوم الأسس العملية للحرب الباردة في دور الأوبرا والمسارح والمعارض الفنية، وكذلك في الاجتماعات المهنية الأكاديمية.

ويوضح الكتاب وجود ثقافتين تتصارعان على الوعي الاجتماعي، وتنشطان باستمرار في الميدان الروحي: ثقافة الوعي وثقافة الوعي الزائف. وبما أن الصراع الثَّقافي يدور من أجل اكتساب عقول البشر وإراداتهم، في سبيل تحررهم أو استعبادهم، فقد ركزت الحرب الباردة الثَّقافية هجومها لتدمير التحصينات الأمامية للوعي الاجتماعي، عبر طريق «استخدام الدعاية

لإضعاف المواقف المعادية»، وذلك كي تُبقي الجمهور قطيعاً حائراً مذهولاً، حسب تعبير ليبمان، أحد أفراد النخبة المكلفة بطرح «عقيدة» ثقافة الحرب الباردة. والغاية النهائية وراء ذلك – كما تبينه إحدى التوجيهات السرية - تتجلى في صناعة «أناس يرون أن كل ما تقوم به الحكومة الأميركية صحيح، ويعتقدون أن ذلك هو اقتناعهم الشخصي، وأنه جاء بعد تفكير وليس إيحاءً من أحد»، أي أن يقبلوا طواعية الاستعباد الروحي للمصالح الأميركية.

ويكشف الكتاب القناع عن نشاط مجموعات من المفكرين تحت ستار من السرية المطلقة يتولون وضع المبادئ الأيديولوجية الأساس الموجهة لنشاط العاملين في صناعة الرأي العام. فالقرارات التوجيهية الأساس لم تنطلق من الهيئات التمثيلية المنتخبة، بل من قبل لجان تعمل وراء الكواليس، الأمر الذي يبرر شبهة التآمر لنشاطات السياسة الأميركية من المجموعات الأيديولوجية كفيلق النخبة التابع لمكتب الخدمات الاستراتيجية، إذ أقرت للنخبة مهمة «غير شرعية وغير قويمة»، واستطاع أفرادها فيما بعد أن «يفردوا نفوذهم على قاعات مجالس الإدارات والمؤسسات الأكاديمية والصحف الرئيسة والإعلام والشركات القانونية ومؤسسات الدولة. وأمدتهم معتقداتهم المسيحية بقناعة لا تتزعزع بأنهم الصفوة وليسوا الفئة المختارة».

وتحت إدارة ألن دالاس تشكل في وكالة المخابرات المركزية قسم العلاقات الدولية؛ بهدف «تشجيع المفكرين على تقديم أفكار ونظريات لا تستهدف الجماهير العريضة، وإنما موجهة بالدرجة الأولى لمجموعات نخبوية صغيرة من الجماعات الضاغطة ورجال الصناعة ممن يقرون السياسات الحكومية». ولدى الانتقال إلى المقر الجديد في لانغلي عام 1961 أمر ألن دالاس بحفر عبارة على الواجهة كان يرددها من الإنجيل «ولسوف تعرف الحقيقة ولسوف يجعلك الرب حرّاً». وقد تواطأ الكهنوت مع المخابرات المركزية على إخفاء شيطان الثروة وتهريبه داخل ملكوت الرب، إذ قدم أحدهم، Reinhold N iebour مادة لاهوتية في مجلة التايم، وطرح الخطيئة الأولى كأداة سياسية. «وما كان للمكارثية أن تظهر بالقوة التي دفعت نشاطاتها بدون مفهوم الخطيئة الأولى المروَّج لها عمداً من قبل علماء اللاهوت

المقربين من الوكالة.... ومن طقوس المطاردة المكارثية أن يقوم المعترف علناً بلعن شركائه إلى جانب الشيطان. كانت طقوس الاعتراف أمام المحققين تتم بمظهر ديني». ودخلت الطقوس (المقدسة) إلى عالم هوليوود «انتشرت حملة تطهير الثَّقافة الأميركية من شرور الكفر والإلحاد».

وقد تبين أن الولايات المتحدة حاولت الترويج لمشروعها في بلدان أوروبا الغربية، بعد مشروع مارشال الذي قدمت فيه المساعدات المالية للقارة الجديدة من أجل تجاوز المخلفات الكارثية للحرب العالمية الثانية، وهكذا أُنشئت شعبة أوروبا الحرة، التي كان المسؤول عنها هو الممثل الشاب في الخمسينات رونالد ريغان، الذي سيصبح في نهاية السبعينيات من القرن الماضي رئيساً للولايات المتحدة، والذي عرفت مرحلته تزايداً في وتيرة السباق نحو الفضاء مع الاتحاد السوفياتي. ولكي تتستر أميركا على الأموال التي كانت تتدفق على منظمة الحرب الثَّقافية ومشروعاتها وعلى شعبة أوروبا الحرة، دفعت المؤسسات الخيرية إلى الواجهة حتى لا تظهر وكالة المخابرات المركزية في الصورة وحتى تتحايل على المثقفين والأدباء الذين كانوا يؤمنون بالمشروع ويستفيدون منه. لذا فإن الجهود التي دعمتها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA أسكتت أصوات أعضاء الكونجرس الأمريكي، فلم يكن أحد في الكونجرس يستطيع أن يقف ليقول: «انظر ماذا يفعلون بأموال دافعي الضرائب». بالإضافة إلى أن 99% من الدعم المالي كان عن طريق إعانات ومنح بدون أية مستندات.

عندما جاء أيزنهاور العام 1953 رئيساً لأميركا أنشأ في البيت الأبيض دائرة شؤون الحرب النفسية، وكانت خطة هذه الدائرة هي أن تكسب أميركا الحرب العالمية الثالثة، إذا حصلت، دون أن تخوضها. وفي العام 1952 اتفقت المخابرات البريطانية ونظيرتها الأميركية على إصدار مجلة ثقافية جديدة رفيعة المستوى بتعاون بينهما وبدعم سري منهما، اختير لها اسم «إكس» لكي توحي بالحيادية، وتم الاتفاق مع المخرج السينمائي الكساندر كوردا ليتم التحويل المالي للمجلة عن طريق حسابه الشخصي كداعم للمجلة، وكذلك عن طريق صديق المجلة الآخر وهو اللورد فيكتور روتشيلد. وكانت المجلة، إلى جانب مجلة «إنكاونتر» ذات الملامح اليسارية،

تقود المعركة الثَّقافية الأميركية ثقافياً بينما يقودها عملياً جوزيف مكارثي، العضو الجمهوري بالكونغرس الأميركي الذي ارتبط اسمه بالحرب على الشيوعية.

وفي إطار المواجهة الأمريكية في صراعها الثَّقافي مع السوفيت فقد ساهمت البيوت الثَّقافية الأمريكية بدور كبير في تغيير الصورة السلبية التي ترى أن أميركا متخلفة ثقافياً تلك النظرة التي امتدت لأجيال متعددة. وفي هذا السياق تم البدء في برنامج ضخم للنشر عملاً بما قاله دزرائيلي بأن الكتاب يمكن أن يكون شيئاً عظيماً مثل المعركة وكان يهدف إلى تقديم الصورة الأمريكية للقارئ الألماني بأكثر الوسائل تأثيراً. وبفضل هذا البرنامج تحسنت كثيراً صورة الأمريكيين وتألق طابعها الثَّقافي في ألمانيا بعد الحرب وفي غيرها من المناطق المحتلة، وأيضاً تم الترويج لكتاب أوربيين لنقد السياسة الخارجية السوفيتية وللشيوعية كنظام حكم. وقد تنبه الأمريكيون إلى الثغرة الخطيرة في فشلهم في اكتساب الطبقات المتعلمة والمثقفة.

وانطلاقاً من أن الكتب هي أهم سلاح في استراتيجية الدعاية بعيدة المدى، فقد بقيت وكالة المخابرات المركزية الأميركية ملتزمة بتحفيز منظمة الحرية الثَّقافية على تأليف الكتب السياسية بواسطة مؤلفين أجانب غير معروفين، إما عن طريق دعم الكاتب مباشرة أو بشكل غير مباشر عن طريق الوكلاء أو الناشرين. وقد نشرت جريدة «نيويورك تايمز» الأميركية أن الوكالة كانت عام 1977متورطة في نشر ما لا يقل عن ألف كتاب.

وتذكر الكاتبة بأن ظاهرة الكاتب الجاسوس لم تكن جديدة آنذاك، حيث إن سومرست موم (1874-1965) استخدم مكانته الأدبية كغطاء لمهام المخابرات البريطانية في الحرب العالمية الأولى، وكانت مجموعته من قصص السيرة الذاتية بمثابة إنجيل لضباط المخابرات البريطانيين. وقد أنيط بآل روكفلر تبني الفنانين اليساريين، ومنهم الفنان الثوري المكسيكي دييجو ريفيرا، تحت شعار أن الحمر سوف يكفون عن أن يكونوا حمراً إذا نحن منحناهم بعض الاعتراف الفني. كما تؤكد الكاتبة أن وكالة المخابرات المركزية الأميركية كانت جزءاً أساسياً من آلة تكريس التعبيرية التجريدية في مقابل التمثيلية الواقعية في مجال الفن التشكيلي، وتشير

إلى تمويل المخابرات الأميركية لفيلمين عن روايتي الشيوعي البريطاني السابق جورج أورويل، وهما «مزرعة الحيوان» و«1984»، وكان ذلك عام 1959. وأكثر من ذلك تشير الكاتبة إلى أن أورويل نفسه كان يتعامل مباشرة مع المخابرات البريطانية، وسلمهم قائمة تضم أسماء 35 شخصاً باعتبارهم متعاطفين مع الشيوعية، كان من بينهم الكاتب الواقعي جون شتاينبك.

تجسدت فكرة مكافحة الشيوعية عبر الشيوعيين السابقين لدى وكالة المخابرات المركزية، وأن أفضل طريقة لتدمير الشيوعية يمكن أن يتحقق عن طريق تعبئة اليساريين غير الشيوعيين عن طريق حملة واسعة للإقناع بما يصفه آرثر شليزنجر بالثورة الهادئة، والتي ستصبح الأساس النظري للعمليات السياسية الاستراتيجية ضد الشيوعية. وتحت أغطية كتاب «الإله الذي فشل» تم تحويل أولئك الذين يقومون بالدعاية للسوفيت سابقاً إلى فرصة لا تقاوم لتحطيم آلة الدعاية السوفيتية وأصبحت عصابة « الإله الذي فشل» ماركةً مسجلة تستخدمها وكالة المخابرات. وهذا ما أشارت إليه الكاتبة في كون اليساريين الذين لم تستطع المخابرات شراءهم، استغلت مواقفهم عندما كانوا ضد الشيوعية، فقد طبعت منظمة الحرية الثَّقافية آلاف النسخ من بياني جان بول سارتر وألبير كامو بخصوص الاجتياح السوفييتي للمجر يوم 4/11/1956. كما كانت المخابرات الأميركية مهتمة بالكاتب الروسي ليون تولوستوي، مؤلف رواية «الحرب والسلام»، كرمز لمفهوم الحرية الفردية، وأقامت احتفالاً باذخاً في أواخر يونيو من عام 1960 في البندقية للرد على احتفال السوفييت بالذكرى الخمسين لوفاة الكاتب الروسي الشهير، حضره عشرات الكتاب البارزين منهم الروائي الإيطالي المعروف (البيرتو مورافيا).

وأيضاً فقد تصاعد الدور البريطاني في مواجهة الدعاية السوفيتية، وكانت الـ IRD (إدارة البحث الإعلامي البريطاني) التي أنشأتها حكومة كليمنت اتلى لمكافحة الشيوعية عام 1948 والتي كانت بمثابة وزارة سرية للحرب الباردة، وهي من أسرع الأقسام في وزارة الخارجية نمواً واتساعاً، وكان هدفها إنتاج وتوزيع ونشر دعاية لا يمكن أن تنسب إليها. وقد بين وزير الخارجية ومهندس الـ IRD في مقام تقديم رؤية أيديولوجية منافسة للشيوعية.

بأنه لا يمكن القضاء عليها ودحضها على أسس مادية فقط، وأنه لا بد من اعتماد الميل الإيجابي للمبادئ الديمقراطية والمسيحية، وعدم نسيان قوة المشاعر المسيحية في أوروبا. لذلك يرى رالف موراى أول رئيس لـ IRD بأنه من المهم عدم إثارة أي انطباع داخل المملكة أو في خارجها بأن وزارة الخارجية تنظم حملة معادية للشيوعية؛ لأن ذلك من شأنه أن يُغضب أو يحرج عدداً من الأفراد الذين لديهم استعداد لتقديم العون لهم؛ الأمر الذي يعرضهم للاتهام بأنهم يتلقون معلومات معادية للشيوعية عن طريق كيان شرير في وزارة الخارجية يقوم بفبركة دعاية موجهة ضد الاتحاد السوفيتي. إلّا أنه لم يكن مسموحاً لـ IRD مهاجمة أية دولة عضو في الكومنولث ولا الولايات المتحدة، وتشير الكاتبة إلى أن الـ IRD اختيرت لتلقي توجيهات وإرشادات الـ CIA كونها كانت معنية بوضع الخط السياسي التي كانت واشنطن تتوقع أن تتبعه المنظمة وتمرير أهدافها الخارجية؛ بما لها من اتصال وثيق بالتيارات الفكرية والثقافية في أوروبا الغربية.

وتتساءل سوندرز عن مدى التشويه الذي طال عملية تطوير المثقفين وأفكارهم من خلال تورط المخابرات المركزية في الحرب الباردة الثَّقافية، بالإضافة إلى نوع المعيار في الاختيار: هل هو الموقع أو القيم الفكرية؟ وتشير إلى سلسلة المقالات التي نشرتها نيويورك تايمز، وكشفت فيها العمل السري للجماعات المرتبطة بالمخابرات الأمريكية، ودورها في المحاولات الانقلابية والاغتيالات السياسية الذي جعل الوكالة كالثور الهائج الذي لا يردعه أي شعور بالمسؤولية، ومن خلال سياسة العباءة والخنجر ظهر الدور الأمريكي الذي يحاول إضفاءَ المقبولية على عملياته وإعطاءَها ثقلاً ثقافياً.

وفي المقابل تشير الكاتبة إلى أن روسيا كانت السبّاقة في استخدام الثَّقافة باعتبارها وسيلة للإقناع السياسي خلال سنوات الحرب الباردة الأولى من أجل جعل نموذجها مقبولاً ثقافياً، وبسبب عدم وجود القوة الاقتصادية والقدرة النووية مثل الولايات المتحدة صمم ستالين على كسب معركة الصراع على عقول البشر، في الوقت الذي كانت فيه أميركا حديثة

العهد وقليلة الخبرة في ميدان الصراع الثَّقافي الدولي. وقد أنتجت الدعاية السوفيتية النظرة التي ترى أن أميركا صحراء ثقافية.

وفي موضع آخر تكشف الكاتبة عن أخلاقية التعامل الأمريكي، ففي حديث أمام كلية الحرب الوطنية قدم جورج كينان مفهوم «الكذب الضروري» كمكون أساس من مكونات الدبلوماسية الأمريكية بعد الحرب، وهو يرى ضرورة مواجهة الشيوعية بالكذب واللاحقيقة واللامنطق وحصلت تلك الفلسفة لاحقاً على تصريح رسمي بموجب توجيه إداري من الرئيس ترومان بالسماح للمخابرات استخدام الأنشطة النفسية السرية لدعم السياسة الأمريكية المضادة للشيوعية والتي أصبحت سياسة معتمدة لعقود من الزمن، وهذه التوجيهات أُعدَّت بسرية تامة؛ لأنها كانت تتبنى مفهوماً صريحاً لمتطلبات الأمن الأمريكي لكي يطوق عالماً يجري تعديله على النمط الأمريكي. واتخذت فيها أقصى عمليات سرية موجهة، وأن تكون أنشطتها مخططة ومنفذة جيداً، بحيث لا تبدو أية مسؤولية لحكومة الولايات المتحدة ويمكنها أن تتنصل عنها بشكل مقنع في حال اكتشافه.

وقد عملت الولايات المتحدة عبر مؤسسات وهمية وتمويل سري ضخم وحملة إقناع هائلة في حرب دعاية ضارية تخطط لها وتديرها «منظمة الحرية الثَّقافية الأميركية» ضد اليساريين والشيوعيين في أنحاء العالم، هذه المنظمة كانت بمثابة وزارة غير رسمية للثقافة الأميركية، أو لتكون « الزمّار» الذي تدفع له الـ «CIA» ثمن ما تطلبه منه من «ألحان». وكان لها مكاتب في 35 دولة من بينها عدد من الدول العربية، خاصة لبنان والسعودية والأردن والمغرب وليبيا ومصر، حيث تم إنشاء مكاتب فرعية لمؤسسات «روكفلر» و «كارنيجي» و «فرانكلين للطباعة والنشر» و «نادي القلم» و «مجلة المختار».

وقد استمر نشاط الحرب الثَّقافية الباردة وتطورت أساليبه كثيراً عن السابق من أجل تحقيق التأثير والنفوذ الغربي والأمريكي بمختلف أشكاله على الدول والشعوب الأخرى، بممارسة الحرب النفسية والدعاية. والتي دشنتها المخابرات المركزية الأمريكية بتأسيس وحدة

العمليات الدعائية، وبزوغ نظرية ادوارد برنايز للسيطرة على الرأي العام من خلال تقنيات هندسة المزاج التي مهدت الأرضية للعمليات السرية والانقلابات التي حصلت في 80 بلداً حول العالم، وتطورت تلك الأساليب إلى مرحلة متطورة من التخطيط والمنهجية والشمولية والإعداد والتجهيز بما يضاهي العدوان العسكري، وقد تنبهت بعض البلدان إلى الحرب الثَّقافية (الناعمة) التي تقودها أمريكا وحلفاؤها، كما هو الحال مع الصين التي تنبهت إلى محاولات ضربها من الداخل، وتفكيك هويتها الثَّقافية والقومية وتبنت (استراتيجية المواجهة الثَّقافية والسياسية)، بهدف التصدي للتحديات الثَّقافية والأيديولوجية على المستوى الدولي، وتعزيز الثَّقافة الصينية، وأدرجت روسيا القوة الناعمة في برامجها الخارجية منذ سنة 2012 وقامت بمنع الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية من العمل على الأراضي الروسية، وقامت بحل مئات منظمات المجتمع المدني الروسية التي تمولها أميركا والغرب، وفي بريطانيا تم تشكيل (لجنة القوة الناعمة والنفوذ البريطاني) عام 2012 بهدف إعادة تقييمها وإدراك منافعها وأهمية الاستثمار المالي فيها.

الأمر الذي يؤكد ضرورة معرفة أساليب الولايات المتحدة التي كشفت عن الكثير منها الكاتبة سوندرز في مواجهة الثَّقافة الشيوعية، كونها حاولت استقصاء كيفية عمل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وأساليبها في توظيف الثَّقافة للدفاع عن مصالحها من خلال اتخاذها المنظمات الإنسانية والمؤسسات الثَّقافية في مجال الآداب والفنون واجهة لتحقيق أهدافها في مواجهة الثقافات الأخرى على مستوى العالم بأسره، وفي أوروبا على وجه الخصوص. ولا شك أن هذا الدور أصبح أكثر خطورة بعد أن اتضح الوجه الحقيقي لأميركا لدى الشعوب عبر حروبها العسكرية والاقتصادية، وعبر التوجه المرتبط بالحرب الثَّقافية التي تنبع من الثَّقافة الأمريكية وقيمها، في محاولة لإضفاء طابع المصداقية والسمعة الطيبة. بعد أن هيمنت الولايات المتحدة على العالم عبر ثقافة مصنوعة تنفي الآخر بشدة، وهي ثقافة تستهدف العقول وتغيير نمط التفكير بلا عنف كما كان سائداً في السابق، وربما يتم اللجوء إلى العنف إذا دعت الضرورة، لذا فإن حرب «الاستيلاء على العقول» مازالت مستمرة.

فالحرب الثَّقافية التي كانت بدايتها مع السوفيت لم تتوقف بانهيار المعسكر السوفيتي، وإنما هي مستمرة بأوجه وأشكال مختلفة، وتتجلى معالمها بوضوح من خلال السعي الحثيث للولايات المتحدة الأمريكية إلى تغيير أنماط وسلوكيات الشعوب بما ينسجم مع الرؤية الثَّقافية الأمريكية؛ بهدف ترسيخ مركزيتها وهيمنتها وإحكام قبضتها وسيطرتها المطلقة على العالم عبر مختلف الممارسات والسلوكيات التي تنتهجها في سياستها الخارجية؛ لتحقيق أهدافها بمختلف أساليب القوة وطرقها، والتي بدأت منذ تحفزها لقيادة العالم والهيمنة عليه.

لذا فإن كتاب «الحرب الثَّقافية الباردة» يقدم معلوماتٍ مهمةً حول عدد من الأسئلة المهمة التي تتناول الطرق التي يدافع بها مثقفو وكالة المخابرات المركزية عن المصالح الأمريكية على الجبهة الثَّقافية. كما تثير الكاتبة سوندرز قضايا مهمة حول التداعيات طويلة المدى للمواقف الأيديولوجية والفنية التي ينادي بها المثقفون المؤيدون لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية ودورها في توجيه مسارات عالم الثَّقافة والفنون والآداب. ولا بد من الإشارة إلى أن الكتاب رغم أهميته الفائقة وما يكشف عنه من حقائق، فإنه لا يمكن لكاتبةٍ مهما حاولت استقصاءه من أدلة ووثائق أن تكشف عن الدور الكبير الذي تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها؛ لأن الحرب الباردة ومواجهتها ثقافياً لم يقتصر على الدور المذكور، وإنما له أوجه أخرى متعددة.

هوية الكتاب

عنوان الكتاب: من الذي دفع للزمَّار- الحرب الباردة الثَّقافية

اسم المؤلف: فرانسيس ستونر سوندرز

ترجمة: طلعت الشايب

تقديم: عاصم الدسوقي

عدد الصفحات: 457

دار النشر: المركز القومي للترجمة، القاهرة.

الطبعة: الرابعة

تأريخ النشر: 2009

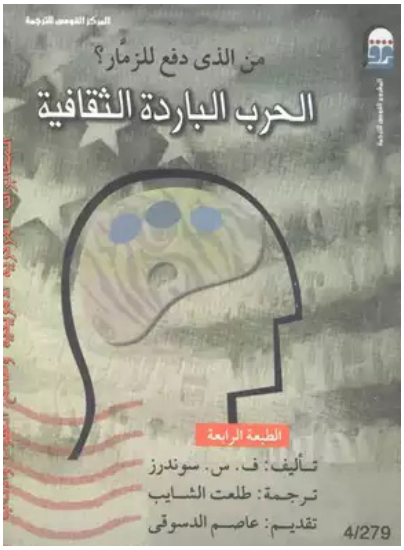

قراءة: عبد الخالق كاظم إبراهيم - باحث /دكتوراه في اللغة العربية

بغداد 2023

ملاحظة:

الآراء الواردة في هذا البحث لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المركز، إنما تعبر فقط عن وجهة نظر كاتبها

عن المركز

مركز البيدر للدراسات والتخطيط منظمة عراقية غير حكوميّة، وغير ربحّية، تأسس سنة 2015م، ومُسجل لدى دائرة المنظمات غير الحكومية في الأمانة العامة لمجلس الوزراء.

يحرص المركز للمساهمة في بناء الإنسان، باعتباره ثروة هذا الوطن، عن طريق تنظيم برامج لإعداد وتطوير الشباب الواعد، وعقد دورات لصناعة قيادات قادرة على طرح وتبني وتطبيق رؤى وخطط مستقبلية، تنهض بالفرد والمجتمع وتحافظ على هوية المجتمع العراقي المتميزة ومنظومته القيمية، القائمة على الالتزام بمكارم الاخلاق، والتحلي بالصفات الحميدة، ونبذ الفساد بأنواعه كافة، إدارية ومالية وفكرية وأخلاقية وغيرها.

ويسعى المركز أيضاً للمساهمة في بناء الدولة، عن طريق طرح الرؤى والحلول العملية للمشاكل والتحديات الرئيسة التي تواجهها الدولة، وتطوير آليات إدارة القطاع العام، ورسم السياسات العامة ووضع الخطط الاستراتيجية، وذلك عن طريق الدراسات الرصينة المستندة على البيانات والمعلومات الموثقة، وعن طريق اللقاءات الدورية مع الجهات المعنية في الدولة والمنظمات الدولية ذات العلاقة. ويسعى المركز لدعم الإصلاحات الاقتصادية والتنمية المستدامة وتقديم المساعدة الفنية للقطاعين العام والخاص، كما يسعى المركز لدعم وتطوير القطاع الخاص، والنهوض به لتوفير فرص عمل للمواطنين عن طريق التدريب والتأهيل لعدد من الشباب، بما يقلل من اعتمادهم على المؤسسة الحكومية، ويساهم في دعم اقتصاد البلد والارتقاء به.

حقوق النشر محفوظة لمركز البيدر للدراسات والتخطيط

www.baidarcenter.org

info@baidarcenter.org